الفصل الأول

عصر البارودى

١ — الحياة السياسية

سخر محمد على كل شىء فى مصر لخدمة مطامعه ، وحروبه الكثيرة التى شنها على تركيا محاولا أن يؤسس ملكاً عريضاً . وكان محمد على هو كل شىء فى مصر ، فالأرض ملك للدولة والفلاحون يكدحون والدولة هى التى تجنى الثمرة وتترك لهم ما يقوم بأودهم .

وقد استعان محمد على بكثير من الأجانب ، وقد جاءوا أول الأمر علماء وباحثين وكان أكثرهم من فرنسا التى كان بينها وبين محمد على صداقة متينة بيد أن هذا التيار الأجنبى توقف فى عهد عباس الأول الذى كان ينفر كل النفور من الثقافة الأجنبية ولا سيما الفرنسية فنحى عن مناصب الحكم فى مصر أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيون ، فجاء ذكره على ألسنة مؤرخيها مشوباً بالقدح خالياً من المدح[1] .

ولكن فرنسا المستعمرة لم تكن ترضى بهذا ، فإن فاتها الغزو الحربى فعزيز عليها أن يفوتها الغزو الأدبى ، والتمكين للغتها وثقافتها بأرض مصر ، فتفيد نفوذاً وتجارة ، ولعلها تجد فرصة مواتية فتتدخل فى شئون مصر ، ولذلك حثت علماءها على تأدية الرسالة التى اضطلع بها المجمع العلمى المصرى ، وشجعت الفرنسيين على الإقامة بمصر ، وحثت الأثرياء على دفع الأموال الطائلة فى القروض التى أصدرتها الحكومة المصرية ، وفى إنشاء قناة السويس ، وتأسيس

---

(١) البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد للأمير عمر طوسون ص ٤١٨ .

المصارف العقارية إلى غير ذلك ، وبهذا خضعت مصر اقتصاديًّا لفرنسا ، كما عملت هذه الدولة على بسط نفوذها الثقافى بإرسال عشرات الإرساليات التبشيرية والتعليمية وفتح المدارس المختلفة[١] .

أما إنجلترا فقد أدركت أهمية مصر منذ أن غزاها نابليون ، ووثقت أن دولة قوية مثل فرنسا تستطيع أن تحول بينها وبين مستعمراتها فى الشرق الأقصى إذا استقرت بوادى النيل ، ولذلك عملت جاهدة على إخراج نابليون وجنده من مصر ، وكانت موقعة أبى قير المشهورة ، ثم حاولت غزو مصر سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال « فيرزر » ، ولكن مصر تصدت لهذا الغزو الذى لا مسوّغ له إلا الجشع الاستعمارى ، وهزم الإنجليز هزيمة منكرة فى رشيد فى تلك السنة . بيد أن إنجلترا لم تستسلم للهزيمة . فأخذت كذلك ترسل البعثات التبشيرية الواحدة تلو الأخرى ، وعملت على تأسيس عدد من المدارس الإنجليزية بمصر ، وظلت تنتهز الفرصة للتدخل المباشر فى شئون البلاد حتى تم لها ذلك عقب الثورة العرابية .

ولقد بدت مطامع إنجلترا وفرنسا واضحة جلية ، فأثقلت على مصر الديون فأنشئ فيها صندوق الدين ، وفرضت الرقابة الثنائية ، واستحالت هذه الرقابة إلى مشاركة فى الحكم ، إذ دخل وزارة « نوبار » وزيران أوروبيان أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، يشرف الفرنسى على وزارة الأشغال ويشرف الإنجليزى على وزارة المال[٢] ، وأى احتلال أبشع من هذا ؟ إن الذى يصرّف المال قوّام على شئون الدولة ، ومن يتولى وزارة الأشغال مهيمن على تقدم الأمة . ولذلك ثارت ثائرة الوطنيين وقادة الفكر وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغانى ، فأخذ يندد بحكم إسماعيل ، وسيطرة الأجانب ، وازدياد نفوذهم ، يؤازره فى ذلك صفوة من حواريه وتلاميذه ، وظهرت المقالات القوية ضد تبذير إسماعيل وضد الاستعمار فى جريدتى أديب إسحق « مصر والتجارة » . بل إن الوقائع المصرية وهى الجريدة الحكومية لم تسلم من الثورة ، فأخذ الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين ينقد الحاكم المستبد فى الوقائع ويقول : « إن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر

---

(١) « تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل » لإلياس الأيوبى جـ ١ ص ٢١٨

(٢) « عصر إسماعيل » لعبد الرحمن الرافعى جـ ٢ ص ٩٠

الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

أخذ هؤلاء المفكرون ينادون بالدستور ، وبمشاركة الأمة فى الحكم حتى لا يقع الحاكم فى مثل ما وقع فيه إسماعيل من أخطاء ، وكان إسماعيل متبرماً بهذا النقد . بيد أن الأزمة المالية التى أوقع فيها مصر انتهت بنزوله عن العرش لابنه الخديو توفيق . وكان الناس يؤملون خيراً فى توفيق هذا ، إذ كان يجتمع بالسيد جمال الدين وهو ولى للعهد ، ويرى منه ميله للأخذ بنظام الشورى ، ويسمع منه نقده لسياسة أبيه وإسرافه ، غير أن توفيقاً لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، وسرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه ، فلم يدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين ، بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ إذ حرضوه على إخراجه من مصر[1] ، فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً فى معاملته له ، بل استعمل معه غاية الغلظة والجفاف ، كما أرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابى ، وحكم البلاد حكماً مطلقاً استجابة لرغبة الأجانب وتدخلهم فى شئون البلاد ، فعز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار الفاسد ، والاستبداد ، والرشوة ، والسخرة ، والعبودية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا فيه ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا فى منتهى الغلظة والقسوة فثار الجيش ثورته العتيدة بقيادة عرابى فى أول سنة ١٨٨١ ، وأحرز أول انتصاراته فى فبراير من تلك السنة بعزل وزير الحربية الجركسى المتعجرف المستبد « عثمان رفقى » وأسندها إلى أكبر نصرائه « محمود سامى البارودى » ، وبلغت الثورة أوجها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حين احتشد الجيش فى ميدان عابدين ، وتظاهر أمام الخديو توفيق وأرغمه على إسقاط وزارة رياض ، وتأليف وزارة محمد شريف ، غير أن وزارة شريف باشا لم تمكث إلا أمداً يسيراً ، وهنا تولى البارودى رئاسة الوزارة ، وحاول أن يصلح الأمور فى الجيش بالرفق والهوادة ،

---

(١) « مجلة المنار » جـ ٨ ص ٤٠٤ ، وانظر كذلك The Persian Revolution Browne,p.8 و « تاريخ الإمام » جـ ١ ص ٧٦

ولكن الأمور سارت على غير ما قدر ، وطالب الجيش بعزل توفيق ؛ وخاض البارودى الثورة مع الخائضين . ولكن دول الاستعمار كانت تتربص بمصر الدوائر فتدخلت فى شئونها ، ونهضت لحماية توفيق كما زعمت ، فضربت ضربتها فى يولية سنة ١٨٨٢ ، واحتلت إنجلترا مدينة الإسكندرية ، وكانت مواقع بين الإنجليز ، وجيش عرابى الذى لم يكن على استعداد لخوض غمار حرب مع دولة قوية كإنجلترا ، ثم كانت معركة « التل الكبير » وهزيمة عرابى ، وإخفاق الثورة واحتلال الإنجليز لمصر .

لقد تطورت حركة الجيش من المطالبة بإنصاف المصريين إلى حركة عامة تطالب بالدستور ، وبتحرير البلاد من النفوذ الأجنبى ، وأخذ كتّاب الثورة وخطباؤها أمثال عبد الله نديم ، ومحمد عبده ، يصورون ما لاقته مصر على يد الحاكم المستبد فى عهد إسماعيل ، ويصورون بؤس الفلاحين فى السخرة[1] ، والعذاب المهين الذى يصبه الرؤساء على الناس وكيف يلهبون ظهورهم بالسياط فى سبيل الجباية ، ودفع الضرائب ، حتى نفر الناس من الأرض وكرهوا زراعتها ، لكثرة ما أرهقوا به على يد الجباة والمرابين ، ولهذا كانت ثورة على الفساد والاستبداد والظلم .

لقد تطورت الثورة العرابية إلى ثورة عامة حمل لواءها الجيش ، ونهضت مصر على أثره تؤيده وتشجعه ، لولا أن مصر فى ذلك الوقت كانت ضعيفة ، وكانت مواردها قد استنزفها إسراف إسماعيل ، ولم تكن الأمة قد اكتملت يقظتها ، وكانت إنجلترا فى أوج عصرها الاستعمارى ، ولها نفوذ قوى بين الدول ؛ ولهذا كله أخفقت الثورة ، ونفى زعماؤها إلى « سرنديب » إحدى جزر الهند ، وهى من مستعمرات إنجلترا ، ومن هؤلاء الزعماء البارودى .

---

(١) كان الأهالى يسخرون فى إقامة الجسور على النيل أيام الفيضان وحفر الترع من غير أجر وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين فى أرضهم بدون أجر .

٢ — الحياة العقلية

ظلت مصر وبلاد العروبة زهاء ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك والمماليك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعانى مرارة الظلم ، وقسوة الحرمان ؛ فقد حرمها الأتراك أغلى كنوزها ، فنقلوا كثيراً من العلماء والأدباء والأمراء ، والمهندسين ، والورّاقين ، وأرباب الحرف إلى بلادهم ، كما نقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس[١] . ونهبوا أموال الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء ، وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم ، ولم يبق منه إلا ذماء[٢] يسير بالأزهر .

ومن البديهى أن اللغة العربية لم تجد فى هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويشيب الشعراء والكتاب المحتفين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية فى الدواوين ، وفشت على ألسنة الناس ، ولأن الحكام لا يفقهون العربية ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والغث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين ، ولم يعد فى استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عزّ عليهم اللفظ الجزل ، والأسلوب القوى ، فلجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار[٣] كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام ، وأتوا بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصاباً من آثار من سبقوهم من الكتّاب .

ظلت مصر على هذه الحال حتى دوّت فى آفاقها مدافع نابليون ، فهبّت من سباتها العميق فزعة مذعورة ، وأخذت تقلب الطرف دهشة فى هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، وعرفت أن ثمة دنيا أخرى حافلة بالعلم والحضارة والمال والقوة غير دنيا الأتراك والمماليك وما فيها من جهل وضعف وذلة وانحلال .

---

(١) راجع ابن إياس الجركسى فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وقد أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثمانى .

(٢) الذماء : بقية النفس . (٣) العوار : العيب .

واصطحب نابليون معه كل عُدد الاستعمار والاستقلال والإيقاظ ، فأنشأ مسرحاً للتمثيل ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ، ومعملا للورق ، ومطبعة ، ومراصد فلكية ، وأماكن للأبحاث الرياضية ، ومكتبة عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وأنشأ المجمع العلمى المصرى على نظام المجمع العلمى الفرنسى ، وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره وأعمال رجاله ، وصارت أبحاثهم هى النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر ، ولا بدع إذا ظل المجمع العلمى هو الأثر الباقى حتى اليوم من آثار حملة نابليون ، وذلك لجليل فائدته وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية[١] .

وعلى الرغم من قصر المدة التى قضتها الحملة الفرنسية بمصر ، فقد تركت بها أثراً لا يمحى ، وظل المصريون ردحاً طويلا من الزمن يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم ، « وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر ، وإن ما خلفته الحملة الفرنسية فى مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير لمن أضخم ما يتسنى إنجازه فى هذا الأمد الوجيز[٢] » .

ثم أتيحت لمصر الفرصة فى أن تواصل أمد اليقظة التى ابتدأت على يد نابليون ورأت أنه لا يستقيم لها الأمر إلا إذا كان تحت إمرتها جيش قوى ، وكان وراءه شعب ناهض ؛ فوضعت أسساً متينة لنهضة شاملة فى الجيش والصناعة والزراعة والتعليم والإدارة حتى يكون البعث عاماً يدفع بعضه بعضاً .

وقد وجدت مصر أن خير وسيلة تنهض بالشعب وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة هى الاهتمام بالتعليم ؛ فسلكت فى تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات ، وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية فى العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الأمة .

توالت البعثات إلى أوربا وكانت إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧

---

(١) « تاريخ مصر السياسى » لمحمد رفعت ج ١ ص ٣٩

(٢) The Transit of Egypt, by P. G. Elgood, p. 45.

للتخصص فى شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب ، وزراعة ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة[١] . ولقد كان لهذه البعثات أثر بالغ فى تقدم مصر ، ونهضتها وإرسال نور العلم دافقاً قوياً فى ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل فى إحياء اللغة ، وجعلها مسايرة بعض الشىء للعلم الحديث ، بما ترجمه أعضاؤها من كتب ، وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه فى شتى نواحى العلم ؛ ومن أشهر هؤلاء الشيخ رفاعة الطهطاوى ، الذى ذهب إلى فرنسا إماماً للبعثة ، ولكن نفسه الطموح دفعته لدراسة الفرنسية وإتقانها ، وعنى بكتب الفلسفة والأدب والتاريخ والجغرافيا ، وترجم وهو فى باريس كتابه « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » . وهو أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحثات كانت مجهولة فى تاريخ مصر القومى ، وعرَّب فى كتابه « تخليص الإبريز » دستور فرنسا فى ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، وهو الذى أشار بإنشاء مدرسة الألسن ، وفيها تخرج على يديه صفوة من العلماء والمترجمين الذين ملئوا مصر علماً هم وتلاميذهم حتى بلغ ما ترجموه زهاء ألفى كتاب . وهو أول من كتب فى المسائل الوطنية والقومية ، وواجب المواطن الصالح[٢] ، وترجم رواية « تليماك »[٣] وهى أول رواية تنقل إلى الأدب العربى الحديث .

وعنيت النهضة بالطباعة فأسست مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وهى إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية فى العالم ؛ ولما كان اتجاه مصر فى ذلك الوقت حربياً

---

(١) راجع فى بعثات محمد على Journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨ ص ١٠٩ ، و « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك ج ١٢ ص ١٠

(٢) راجع « المرشد الأمين للبنات والبنين » للشيخ رفاعة الطهطاوى ص ٩٠ — ٩٣

(٣) مؤلف « تليماك » هو الأسقف والكاتب الفرنسى الشهير فنلون (١٦٥١ — ١٧١٥) كان مؤدب الدوق دى بورجونيا وكتب له عدة كتب منها هذا الكتاب ونشره سنة ١٦٩٩ وأودعه نقداً خفياً لحكومة لو س الرابع عشر فأثار القصر عليه . ولقد استوحى فنلون موضوعه من قصة تليماك المشهورة فى الآداب الإغريقية القديمة وملخصها أن تليماك هذا هو ابن اولس تركه أبوه صغيراً لما ذهب إلى حرب طروادة فلما اشتد ساعده جد يبحث عن أبيه تقود خطواته منيرفا إلهة الحكمة والفنون بعد إذ تزيت فى زى منتور صديق اولس الحميم .

علمياً فإن مطبعة بولاق لم تعن فى أول الأمر إلا بالكتب العلمية ، والكتب المترجمة التى يقدمها أعضاء البعثات العائدون إلى مصر ، ولم تهتم بالكتب الأدبية إلا فى عصر إسماعيل .

أما الصحافة فقد وضعت النواة الأولى لها بإنشاء الوقائع المصرية ، واختيار أفاضل العلماء والكتاب لها .

ثم أنشئت عدة مدارس عليا كالطب والصيدلة والهندسة ، وجلب لها كبار الأساتذة من فرنسا ، ولكن العناية الكبرى كانت موجهة للجيش وتقويته ، وإنشاء المدارس التى تعنى به وتقوم على خدمته ، ولم تلتفت مصر للأدب أدنى التفاتة ، وذلك لأن مصر لم تكن بحاجة للأدب حاجتها إلى جيش قوى تدعم به عرشها ، وتؤسس دولتها ، فكان كل شىء فى مصر ، وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها تهدف إلى خدمة الجيش ورجاله .

ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فيما بعد ، فالمدارس التى فتحت فى مستهل النهضة ، والكتب التى ترجمت ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها فى الوثبة التالية ، وساعدت على نجاحها .

على أن ركب النهضة لم يواصل سيره ، بل أصيبت مصر بنكسة سنة ١٨٤٩ على يدى عباس الأول وسعيد كادت ترجع بمصر القهقرى إلى عصور الظلمات ، إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألغى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية ، وعطل الوقائع المصرية ، وأغلق المصانع ووقف البعثات ، وظلت مصر تعانى من هذه النكسة ما تعانى حتى سنة ١٨٦٣ حينما جاء إسماعيل ، وليس بمصر إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية ، وثالثة للصيدلة ، فاستأنفت مصر نهضتها وأعادت للبعثات سيرتها الأولى وأخذت الحياة تدبّ إلى كل نواحى التعليم ، فأعيدت المدارس العالية التى كانت فى عهد محمد على كالهندسة والطب ، وزيد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة « الإدارة والألسن » ، وفى ذلك العهد أنشئت دار العلوم ينشأ فيها الطلبة تنشئة لغوية وأدبية وشرعية مع قسط وافر من العلوم الحديثة وطرق التربية ، وقد كان

لها أثر بالغ فى إحياء اللغة وتجديد أساليبها ، فنفضت عن تراثها المجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعاً جذاباً ، وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم ألسنتهم ، وتدريب أقلامهم ، وتقديم الكتب التى تنهج نهجاً علمياً نفسياً ، ولا تزال حتى اليوم تقوم بنصيبها الوافى فى نهضة التعليم واللغة .

وفى هذا العهد أنشئت أول مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣ وهى مدرسة السيوفية ، وأنشئت عدة مدارس ثانوية وابتدائية للبنين ، وأعيد ديوان المدارس — وهو نواة وزارة المعارف — بعد أن ألغاه سعيد . ومن الوسائل التى ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية فى ذلك العصر « دار الكتب » ، فقد يسرت العلم للراغبين فيه ، وحببت للناس الاطلاع على الكنوز المدفونة ، وعاونت المؤلفين والباحثين ، وساعدت الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

وكثرت الجمعيات العلمية فى ذلك العصر ، وكثرتها دليل على حيوية الأمة ويقظتها ورغبتها فى السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة فى غذائها العقلى ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم لا يصاب الشعب بالشلل العقلى ، ولكن يمضى فى طريقه قُدماً ، يتثقف ويستعد للنضال فى سبيل الحياة السعيدة بهمم أفراده اليقظين ، والجمعيات القوية المنظمة . فمن ذلك جمعية المعارف التى أسست سنة ١٨٦٨ ، وهى أول جمعية علمية مصرية ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، وقد قامت بطبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب ، ولقيت تشجيعاً عظيماً حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمائة عضو من الطبقة الممتازة فى الأمة[١] .

ومن الذين عنوا بنشر الكتب القديمة وإخراجها الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فنشر « معاهد التنصيص » ، و « خزانة الأدب » ، و « مقامات الحريرى » [٢] وغيرها . ومن الجمعيات التى ظهرت فى ذلك العصر الجمعية الخيرية الإسلامية أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ حين دفعت الحماسة جماعة من

---

(١) راجع « عصر إسماعيل » لعبد الرحمن الرافعى جـ ١ ص ٢٥٦

(٢) « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك جـ ١٣ (ص ٥٥ — ٥٦)

المتعلمين بالثغر — رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستئثارهم بمرافق البلاد — إلى تأسيسها ، وانضم إليها السيد عبد الله نديم وأسس أول مدرسة حرة يتعلم فيها المصريون وينشئون تنشئة وطنية صالحة ، وظلت الجمعية قائمة حتى شبت الثورة العرابية ، فتفرق القائمون بأمرها . وعلى غرارها أنشئت جمعية بالقاهرة تحمل اسمها سنة ١٨٩٢ أسسها الشيخ محمد عبده .

هذا وقد تقدمت الصحافة فى ذلك العهد تقدماً عظيما ، وساعدت على تحرر اللغة من آفاتها القديمة التى ورثتها من عصور الانحطاط . ومن الصحف التى كان لها أكبر الأثر فى تذليل اللغة العربية للأسلوب الصحفى صحيفة « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ، وكان أول ظهورها بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد افتن صاحبها فى تحريرها وتخير موضوعاتها ، وجمع فيها بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكل شعراء العربية ، فذاعت وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربيًّا أو إسلاميًّا إلا دخلته واقتبس الناس منها ، وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ ، وقد اشتركت فيها الحكومة المصرية بألفى نسخة .

ومن الصحف التى عملت على نشر الأدب وتشجيع الأدباء « مجلة روضة المدارس » التى أنشأها العلامة على مبارك سنة ١٨٧٠ ، وأشرف على تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوي ، وأسهم فى إخراجها نخبة من جلة العلماء والأدباء فمهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالمجان على جميع التلاميذ ، وقد أفسحت فى أعمدتها للطلبة ينشرون فيها أبحاثهم الجديدة وقصائدهم .

وقد صدرت عدة صحف إخبارية فى مصر كجريدة « وادى النيل » التى أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود ، و « نزهة الأفكار » للأديبين الكبيرين إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال . وقد ساعد على تقدم الصحافة بمصر هجرة جماعة من الأدباء السوريين إليها عقب حوادث ١٨٦٠ حين فروا بحريتهم من الاضطهاد ، فجاءوا مصر ، وقلوبهم تغص بالإحن والحقد على تركيا ، وفى نفوسهم ميل إلى الحرية ، والتنفيس عن الآراء المكبوتة ، وقد شجعهم مصر على الإقامة بها والإسهام فى نهضتها ، فأسدوا للصحافة ولنشر

الثقافة خدمات جليلة . ومن هؤلاء أديب إسحق صاحب جريدتى « مصر والتجارة » ، وكان أديب فلتة من فلتات الزمن ، استطاع — على حداثة سنه — أن يتوهج فى سماء الأدب والسياسة والخطابة نجماً ساطعاً ، وأن يكوّن مدرسة إنشائية يحتذيها الأدباء والخطباء ؛ وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرتزقة ، والأفاقين ، فأضرمها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تخمد لها جذوة فى كل مكان حل به ، وما أكثر ما ارتحل وشُرد فى سبيل مبدئه وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ، ومات ولما ينته العقد الثالث من عمره .

ومنهم سليم وبشارة تقلا صاحبا « الأهرام » التى صدرت فى سنة ١٨٧٥ ، ولا تزال تصدر حتى اليوم . وغير هؤلاء من الصحفيين السوريين والمصريين عدد كبير ، عملوا على ترويج الثقافة ، وتنبيه الأفكار ، ونقد الحكام ، وبحث المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . كما خلصت هذه النهضة الصحفية اللغة من أسرها القديم ، وأوضارها التى ورثتها من عصور الضعف ، وخاضت فى موضوعات شتى ، وسلُس الأسلوب ، واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون فى مقدمته وهو ذلك الأسلوب السهل المرسل ، مبتعدين عن السجع ، وتكلف المحسنات .

ومن العوامل التى ساعدت على نمو الحياة العقلية وتقدمها انتشار المطابع ، فلم تعد مطبعة بولاق وحدها بل أسست عدة مطابع أهلية أخذت تحيى تراث السلف من أدباء العرب ، وتنشره للناس ، ومن أشهر الكتب القديمة التى طبعت فى تلك الحقبة : « المثل السائر » ، و « الأغانى » ، و « مقدمة ابن خلدون » ، و « العقد الفريد » ، و « وفيات الأعيان » ، و « الإحياء » للغزالى ، و « تفسير الرازى » وغيرها من أمهات الكتب ، بجانب عشرات الدواوين لمشاهير الشعراء . مما سهل على الشادين فى الأدب ، والمغرمين به الاطلاع ، والحفظ ، والبحث ، ومن هؤلاء البارودى .

ولكن هذا التيار العربى القديم لم يكن المنبع الوحيد الذى يروى ظمأ الصادين المتعطشين للآداب ، بل كان ثمة تيار آخر أجنى ابتدأ منذ عصر النهضة ،

وإن لم يشتد إلا فى هذا العصر بعض الشىء ؛ وقد عنى أول الأمر بالكتب العلمية إلا أنه ما لبث أن اهتم بالكتب الأدبية فأخذ المتخرجون فى مدرسة الألسن ينقلون ما لذ لهم من عيون الكتب الفرنسية فى القانون والأدب ، وعلى رأسهم محمد عثمان جلال الذى ترجم عدداً من المسرحيات والقصص المشهورة فى الأدب الفرنسى ، وترجم أمثال « لافونتين »[1] فى كتاب سماه « العيون اليواقظ » ، كما ترجم يعقوب بن صنوع الصحفى اليهودى صاحب « أبى نضارة » الجريدة الهزلية عدداً من المسرحيات مثلت مراراً ، وكذلك ترجم أديب إسحق ، وسليم نقاش لمسرحهما عدداً من المسرحيات الفرنسية[2] وقام نجيب الحداد بعبء ضخم فى هذا السبيل .

ولا نستطيع ونحن نتكلم عن الحياة العقلية فى عصر البارودى أن نغفل شخصية علمية كان لها أكبر الأثر فى حياة شاعرنا ، ألا وهى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى ، فعلى الرغم من أن شخصيته السياسية طغت على شخصيته العلمية ، إلا أن أثره فى الأدب العربى الحديث أجل من أن يهمل .

دخل جمال الدين مصر فى سنة ١٨٧١ ومكث بها ثمانى سنوات كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربى والإسلامى ، وأخذ عقله المنظم الجبار يشع النور فى كل مكان يحل فيه صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها فى بيته على صفوة مختارة من حواريه أمثال محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وكانت هذه الدروس فى المنطق والفلسفة والتصوف ؛ إلى مجلس آخر بأحد المقاهى مساء كل يوم حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين فى التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه ويطرحون عليه أسئلة فى مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابة العالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشؤون العامة مما يمس

---

(١) لافونتين شاعر فرنسى مشهور ولد فى سنة ١٦٢١ ، وتوفى بباريس سنة ١٦٩٥ ، ولا يزال كتابه « الأمثال » حتى اليوم ذا منزلة عظيمة فى عالم الأدب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية ، وقصصاً على ألسنة الحيوان من أمثال تلك التى فى كليلة ودمنة .

(٢) إذا أردت المزيد عن نشاط الترجمة فى ذلك العصر فارجع إلى كتابنا « فى الأدب الحديث » ولكتاب « حركة الترجمة فى مصر » لجاك تاجر .

مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة »[١].

وفى هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيى العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخامدة ، وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج البارودى ، والمويلحى ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وأديب إسحاق وغيرهم . وفى هذه المدرسة العامة استعرضت أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدواؤها ودواؤها ، وانتقد الحكام ، وبثت تعاليم الوطنية ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم فى شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

وبحسب جمال الدين أثراً فى الأدب أنه وجهه إلى الاهتمام بالشعوب ومشكلاتها ، بعد أن كان كله يدور حول الأمير وحاشيته ، فصرنا نسمع الكتاب والشعراء يدافعون عن الشعوب المظلومة التى تئن تحت نير العبودية والعسف . لا تعرف كيف تراجع الحاكم فى حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتئن وتتوجع وتسمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر فى غلوائه[٢] . يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ، ولا يفكر فى نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة . ولقد كانت مصر تئن وتتوجع فى هذا العصر من الضرائب القاسية ، والاستبداد والظلم والسخرة والجلد ، والفقر والجهل وصرنا نسمع الكتاب والشعراء فى ذلك العصر يدعون إلى الأخذ بنظام الشورى فى الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب الحكام وعبثهم بكنوزها وأرزاقها ، بل مقامرتهم على استقلالها وحريتها .

٣ — الحياة الاجتماعية

كانت مصر فى عهد محمد على أشبه بمزرعة كبيره خاصة به وبحاشيته ، يديرها مشرفون من قبله يسمون « الملتزمين » ، يجبون له من خيرات البلاد

(١) من ترجمة السيد جمال الدين الأفغانى بقلم الشيخ محمد عبده .

(٢) سدر فى غلوائه : أمعن فى الغلو غير مبال بما يصنع .

ما يفرضه عليهم ، فيرهقون الفلاحين بالطلب ، ويأخذونهم بالعنف والقسوة حتى يحصلوا منهم ما التزموا به ، ويوفروا لأنفسهم ما يهيئ لهم العيش الرغد . وكان هم محمد على منصرفاً إلى الجيش ليوطد به أركان ملكه ويوسع رقعته ، وفى سبيل الجيش ونهضته أسست مدرسة الطب ، والهندسة والصيدلة وغيرها من المدارس العليا ، والمدارس الثانوية والابتدائية التى توصل إليها ، ولهذا لم يكن لعامة الشعب نصيب كبير من هذه النهضة ، بل لم يلتفت محمد على إلى إصلاح حال الشعب ولا اهتم بمعالجة فقره ، ومرضه ، ورفع مستوى معيشته ، ومطاردة الأوهام والخرافات المسيطرة على عقليته .

ثم كان عهد عباس الأول وسعيد أسوأ من عهد محمد على ، فقد أصيبت مصر فى عهدهما بنكسة فى التعليم والجيش ؛ ثم جاء إسماعيل وسار على سنة جده واهتم بمظاهر المدنية الأوربية اهتماماً عظيما ، وأسرف وبذّر فى أموال مصر ، وأرهق الناس بالضرائب حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفاقة فهجروا الأرض ، وفروا بأبدانهم من سياط الجباة .

استمعْ إلى الشيخ محمد عبده يصف ما كانت عليه حال عامة المصريين فى ذلك العهد : « كان أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب على الأراضى متنوعة متكثرة ، تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وغرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهى عند غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشىء مما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم ، وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل كان ذلك على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته غير المرتبة ، فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها فى أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة فى منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء ، فإن من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة »[1] .

---

(١) « تاريخ الشيخ محمد عبده » ج ٢ ص ٧٤ ، وص ١٧٠ ، و « الوقائع المصرية » عدد ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ وعدد ١٩ يونية ١٨٨١

فكان الفلاح من جراء هذه القسوة والجبروت بين عاملين أحلاهما مرّ : إما أن يلجأ إلى من يقرضه بالربا الفاحش ، إذا آثر الاحتفاظ بأرضه ، وسرعان ما ينوء كاهله عن سداد ما عليه من ديون فتنزع منه أرضه ، وإما أن يتركها وينجو ببدنه . وشعب هذه حال جمهرة بنيه لا ينتظر منه أن يعنى بشئونه الاجتماعية : من خلقية ، واقتصادية ، وصحية ، بل تراه نهباً للجهل والخرافات والمرض والانحلال .

وبينما كان الفلاحون يعانون فى سبيل العيش ، والاحتفاظ بأرضهم ما يعانون من ضرائب ، وسخرة ، وجلد ، وظلم دائم ، كانت الطبقة الحاكمة من أبناء الشراكسة والأتراك تتمتع بكل خيرات البلاد ، وتستنزف دماء هؤلاء الفلاحين ، وتبذّر الأموال فى سفه وطيش .

ولقد منّ لورد كرومر على مصر حين ألغى كل هذه المظالم ، وقد صور فى كتابه « مصر الحديثة » كيف أن عهده كان نعمة على الفلاح إذا قيس بعهد إسماعيل فقال : « لقد سرت روح جديدة بالتدريج إلى سكان مصر ، وتعلم الفلاح كيف يمعن النظر فى حقوقه ، وتعلم الباشا أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها ، وعلى الرغم من أن السوط كان لا يزال معلقاً على جدار المديرية ، فإن المدير لم يجرؤ على رفعه واستعماله فوق ظهر الفلاح . وقد اختفت السخرة البغيضة من مصر ، وذهب الرق عملياً من الوجود ، وانقضى أجل الأيام السعيدة التى كان يتمتع فيها المرابون باستنزاف دماء المصريين ، وأصبح للقانون الكلمة العليا فى كل مكان ، بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، وابتدأ المصريون يحبون أرضهم ، ويعملون بها بعد أن كانوا يحتقرونها ، لتمنحهم هباتها وخيراتها فاستجابت لدعوتهم كريمة معطاء . وقد أحكم توزيع مياه النيل بالعدل والقسطاس المستقيم بين أرض الأمير الكبير والفلاح الصغير ، ونظمت وسائل النقل واتسع نطاقها ، وأصبح المرضى يعالجون فى مستشفيات جيدة الإدارة »[1] .

أجل ؛ لقد أراد المحتل الأجنبى أن يتودد إلى شعب مصر ويظهر بأنه أرأف به وأرحم من ولاته المستبدين القساة فرفع عن كاهله كل هذه المظالم ، وإن

---

(١) Earl Cromer : Modern Egypt. vol. II, PP. 55-75

أساء إليه بعد ذلك إساءات لا تغتفر[١] .

ولقد كمم إسماعيل الأفواه ، وغل الأقلام ، وضرب على الصحافة قانوناً صارماً ، وصادر الحريات العامة والخاصة ، وكان حكمه استبدادياً قاسياً ، يفصل فى الأمور كلها برأيه ، ولا معقب لحكمه « ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ هـ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ، واو حدّث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ، فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال »[٢] .

ولا ريب أن الكبت والتضييق على الحريات أوغر الصدور ضد إسماعيل فتألفت بعض الجمعيات السرية لتحطيم تلك الأغلال كجمعية « مصر الفتاة » وكان من أهم أغراضها محاربة إسراف إسماعيل وتهوره ، وتدخل الأجنبى فى شئون البلاد وتجبره ، وكان من أهم أعضائها وأبرزهم عبد الله نديم ، وقد حول هذه الجمعية السرية إلى جمعية علنية تعمل فى ضوء النهار وسماها « الجمعية الخيرية الإسلامية » وذلك فى سنة ١٨٨٠ . وقد جعلت نصب عينيها الاهتمام بالتعليم الوطنى ، وتنظيم الإحسان ، والثورة الشديدة على نفوذ الأجانب الذى استشرى فى البلاد . كما أن مصادرة الحريات والقسوة العارمة من الحكام أوجدت طبقة من المنافقين والنفعيين الذين برم بهم الوطنيون المخلصون ودعاة الإصلاح ، وقد شن عليهم البارودى حملة شعواء فى شعره ، لأنه لقى من كذبهم ونفاقهم وخداعهم مصائب جمة .

لقد كان المجتمع المصرى فى ذلك العصر — عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق ، يتكوّن من أبناء الطبقة الحاكمة ومعظمهم من الشراكسة والأتراك ، وهم أصحاب النفوذ ، وكبار الموظفين ، ولقد ظلت اللغة التركية هى لغة الدواوين

---

(١) راجع الفصل الأول من كتابنا « فى الأدب الحديث » الجزء الثانى .

(٢) محمد عبده فى العروة الوثقى .

معظم عهد إسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية[١]، فلا بدع إذا آثرت الحكومة أبناء الأتراك ومن يجيد التركية بالوظائف الكبيرة . وكان لا هم لأبناء الخاصة هؤلاء إلا العبث واللهو والإسراف فى الزينة والمأكل والملبس ، وتقليد الحياة الأوربية تقليداً أعمى ، ولقد وصفهم محمد عبده فأبدع فى وصفهم ، ونصحهم فى أكثر من مقال فلم ينتصحوا[٢]. ووصفهم البكرى فى صهاريج اللؤلؤ وصفاً شائقاً . على أن قليلا منهم عنى بحياة الجد ، وتشجيع الأدب والأدباء ، فكانت لهم فى منازلهم مجالس يغشاها الكتّاب والشعراء ، وكانوا يعتبرونهم ندماء لهم ، ولذلك شاع أدب الندماء فى هذا العصر ، وقد وصف عبد الله نديم بعض هذه المجالس ومن يغشاها وصفاً[٣] بارعاً كما حدثنا المرحوم أحمد تيمور عن بعض هذه المجالس[٤].

أما سواد الشعب وهم أبناء العامة ، فالمتعلمون منهم ، سواء هؤلاء الذين تعلموا فى الأزهر أو فى مدارس الحكومة ، يمثلون العنصر الصالح فى الأمة ، وكانت تغلب عليهم المحافظة على التقاليد ، والامتثال لأوامر الدين ، وقد كانوا فيما بعد عماد الحركات القومية ، وعدة مصر فى جهادها ؛ أما غير المتعلمين وهم الغالبية العظمى فى الريف وفى المدن ، فكانت تسود بينهم الخرافات ، وإن كانوا على شىء من الطيبة والتحفظ ، إلا أن الجهل كان يفعل بعقولهم الأفاعيل ، ترى ذلك فى الحفلات الدينية ولا سيما فى الموالد .

وكان كثير منهم يدمن على المخدرات ولا سيما الحشيش والأفيون فى جلسات خاصة أو عامة[٥] ، وكانوا يقضون أوقات فراغهم أحياناً فى المقاهى يلتفون حول قاص من القصاص يحكى لهم سيرة عنترة أو أبى زيد الهلالى ، ويزيد عليها من عنده . وقد أوقعهم الجهل فريسة للمرابين والمحتالين من الأجانب[٦].

---

(١) راجع « فى الأدب الحديث » الجزء الأول ص ١٢٦

(٢) راجع « الوقائع المصرية » عدد ٩ فبراير سنة ١٨٨١ ، و « العروة الوثقى » العدد الثالث .

(٣) راجع « سلافة النديم » جـ ١ ص ٢٤

(٤) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجرى .

(٥) العدد الأول من « التنكيت والتبكيت » لعبد الله نديم .

(٦) المصدر السابق .